الهمجية الاستعمارية في مجازر ماي 1945، من خلال الكتابات الفرنسية(جان لوي بلانش نموذجا)

أ.أحمد بن داود
جامعة أبوبكر بلقياد، تلمسان

كثيرة هي الدراسات والأبحاث التي أنجزت حول مجاز 8 ماي 1945 ورغم ذلك فإن هذا الحدث لم يدل بكل أسراره وما زال موضوع بحث واهتمام الدارسين والباحثين بغرض الوصول إلى تفسير لمختلف جوانب هذه المجاز وإعادة تركيب كل التفاصيل والجزئيات المتعلقة بها.

الكاتب جان لوي بلانش (Jean - Louis Planche) من المؤرخين الذين اهتموا بهذه المجازر وأنجز دراسة حولها جديرة بالاهتمام موسومة بـ: "Sétif 1945, Histoire d'un massacre annoncé" تتضمن أدق التفاصيل المتعلقة بالحدث، وتبرز مظاهر الهمجية والعنف المستعملة من قبل مختلف القوات الأمنية المتورطة في عملية سحق وقمع المظاهرات السلمية التي نظمها الجزائريون يوم 08 ماي 1945، كما تتعرض لمختلف أنواع الأسلحة والذخيرة المستعملة والخسائر الكبيرة المترتبة عنها، إذن يمكننا التساؤل كيف تناول الكاتب هذه المجازر بالدراسة؟ وما هي مظاهر الهمجية لهذه المجازر؟ وأين تكمن أهمية هذه الدراسة؟

في تناوله لدراسة مجاز هذا اليوم مهد الكاتب لذلك بالحديث عن الظروف العامة للجزائر قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها، ورصد بعض التطورات السياسية والاقتصادية الهامة للمرحلة مثل الصدامات بين اليهود والجزائريين في 3 أوت 1934، عندما أقدم أحد الجنود اليهود على تدنيس المسجد الأخضر، والمؤتمر الإسلامي ونشاط بعض رموز الحركة الوطنية كالشيخ ابن باديس وفرحات عباس والدكتور بن جلول، ثم إنزال الحلفاء

لقواتهم في نوفمبر 1942 بكل من الجزائر والمغرب، واستغلال الحركة الوطنية لذلك بإصدار البيان الجزائري في فبراير 1943. كما أن الكاتب تعرض لبعض الظواهر السلبية التي رافقت الحرب وذلك كالسوق السوداء وتقنين توزيع المواد الأساسية كالسكر والحليب، ...وارتفاع الأسعار ومعدل البطالة وانتشار الفقر والمجاعة بين صفوف الجزائريين، ثم بعد ذلك ينتقل الكاتب للحديث عن المجاز ولكن بتدرج، حيث سيربطها أولا بمظاهرات فاتح ماي ومشاركة الجزائريين فيها.

1)- مظاهرات الفاتح من ماي ومشاركة الجزائريين فيها

شارك الجزائريون، حسب الكاتب، في مظاهرات 1 ماي 1945 في أغلب المدن الجزائرية، حيث شارك في سطيف حوالي 3000 متظاهر جزائري[1]، وفي قالمة نظمت لجنة "أحباب البيان والحرية" مظاهرة عبرت مختلف شوارع المدينة وانتهت بوضع باقة ورد على نصب الأموات، وكذلك الشأن في مدينة بجاية ووهران وفي الجزائر العاصمة، حيث تشكلت ثلاثة مواكب انضمت إلى التجمع الذي نظمته الكونفدرالية العامة للشغل (C.G.T) أمام البريد المركزي، انتهى باصطدام المتظاهرين بالشرطة التي قمعتهم بمنتهى القساوة، وكانت النتيجة 11 قتيلا وعشرات الجرحى من الجانب الجزائري وقتل شرطي وجرح ثلاثة آخرين من الجانب الفرنسي[2]، وعلى اثر ذلك ثم اعتقال مسؤولي حزب الشعب على مستوى الجزائر العاصمة وهم ماحي ومزرنة وحسين أصلاح، وفي قسنطينة تم اعتقال الشاذلي المكي وعلي الفيلالي واستدعاء فرحات عباس إلى مقر الدائرة (Sous- Préfecture)[3].

إن حديث الكاتب عن تظاهر الجزائريين في إطار الاحتفالات باليوم العالمي للشغل وإسهابه في ذلك معناه "أن لمجاز 8 ماي امتدادات تاريخية ترجع إلى مظاهرات الفاتح من ماي التي تخللتها اصطدامات مع الشرطة ورفع لبعض الشعارات الوطنية بل وإخراج للعلم الوطني كما وقع، حسب الكاتب، في قسنطينة وعنابة[4].

2)- مجاز 8 ماي 1945

أ-مشاركة الجزائريين في مظاهرات 8 ماي 1945

قررت منظمة "أحباب البيان والحرية" المشاركة في المظاهرات التي كان يتم التحضير لها للاحتفال بالانتصار على الفاشية والنازية واستسلام ألمانيا، ولهذا الغرض تم، حسب الكاتب، عقد اجتماع للجنة المركزية في الجزائر ما بين 4 و7 ماي 1945 لدراسة المسألة، وبالموازاة مع ذلك أرسل مكتب حزب الشعب لفروعه الأمر بالتظاهر تحت العلم الجزائري مع إعطاء تعليمات صارمة لأخذ الحذر وذلك بمنع حمل أي سلاح، والامتناع عن التظاهر إذا تدهورت الوضعية أ وكان هنالك خطر محدق بها.

بعد الترخيص للتظاهرة تم تشكيل موكب في مدينة سطيف عبر شارع جورج كليمنصو، في مقدمته فريق للكشافة الإسلامية حاملا باقة ورد تم وضعها على نصب الأموات، ووراءهم مجموعة من مناضلي حزب الشعب حاملين رايات دول الحلفاء ولافتات وشعارات باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية: "أطلقوا سراح ميصالي"، "تحيا ميثاق الأطلسي"، "يسقط الاستعمار"....[5].

يبدأ الانزلاق عندما سيلاحظ بعض أعضاء الشرطة في حاجز أمني، على الساعة التاسعة، ظهور العلم الجزائري ولافتة تحمل شعار "تحي الجزائر الحرة المستقلة"، كان يحملها مناضل وحزب الشعب الجزائري، هنا أطلق مفتش للشرطة النار على حامل العلم الجزائري فأرداه قتيلا، ثم أطلق عيارين ناريين من مقهى فرنسا وعيارات نارية أخرى بعضها من شرفات المنازل المجاورة، أطلقها أوربيون، وهنا رد عليهم بعض مناضلي حزب الشعب الجزائري، وكان ذلك بداية لما عرف بمجازر 8 ماي 1945.

ب- قمع المظاهرات

-القوات المستعملة لقمع المظاهرات

قامت القوات الفرنسية بقمع المظاهرات بمنتهى القساوة والوحشية وجندت لذلك وسائل وموارد كبيرة، وذلك بعد ثمانية وأربعين ساعة من اندلاع الأحداث حيث طلب الحاكم العام شاطني و(Châtaignant) من الجيش سحق

المظاهرات ومعالجة حالات المعتقلين بتنصيب محاكم عسكرية لهذا الغرض، وقد استعرض الكاتب مجموعة القوات المجندة كما يلي:

- في منطقة سطيف إلى جانب الكتائب الستة التي كانت تتوفر عليها تم جلب تعزيزات تتمثل في فيلق للرماة السنغاليين، وفيلق للرماة الجزائريين وثلاثة كتائب تابعة للفيلق الأجنبي من وهران وكتيبة للمشاة من تازة بالمغرب.
- في منطقة قالمة، إلى جانب الكتائب الثلاث التي كانت مرابطة بها، تلقت تعزيزات من تونس تتمثل في مجموعة من الشاحنات المزودة بمدافع رشاشة وفصيل يتكون من 250 رجل، هذا إلى جانب تدخل الطراد ديقواي تروني (Croiseur Duguay Trouin).
- ابتداء من 9 ماي بدأ الطيران في التدخل باستعمال طائرات Martin B26 وبذلك يبلغ مجموع القوات المجندة بغرض القمع 15204 رجل[6].

إلى جانب ذلك ثم تشكيل ميلشيات وتسليحها بغرض المشاركة في أعمال القتل والقمع، ففي قسنطينة بلغ عددها 300 رجل، وفي الجزائر العاصمة 1200 رجل، وفي عنابة 150 رجل، وفي العلمة 100 رجل، وفي قالمة شكل رئيس الدائرة (Sous Préfect) أشياري (Achiary) ميليشيا لهذا الغرض[7].

-نوعية الأسلحة والذخيرة المستعملة

لكي يفسر ارتفاع عدد ضحايا مجازر 8 ماي، قدم الكاتب تفاصيل هامة متعلقة بالذخيرة المستعملة من قبل بعض القوات الفرنسية، فمثلا بالنسبة للطيران كان يستعمل قنابل من فئة 10 كلغ و50 كلغ، وه ونوع من القنابل المضادة للأشخاص من إنتاج إنجليزي، في الأصل موجهة ضد جنود بخوذات أو متخندقين أو ضد تجمهرات مدنية في العراء، هذه القنابل لها مفعول مخيف ومرعب حيث تقطع الأطراف وتشوه الجثث[8].

إضافة إلى ذلك فإن الطائرات المقنبلة Martin B26 كانت كل طائرة منها مجهزة بثمانية مدافع رشاشة لمهاجمة التجمعات السكانية، أما الطراد Duguay Trouin فكان يستعمل مدافع من عيار 75مم و40مم[9].

-مظاهر الهمجية في عملية القمع

اختزلت كثير من المراجع والمصادر حصيلة عملية مظاهرات 8 ماي في 45000 قتيل، لكن الكاتب تجاوز قضية عدد الضحايا ليتعرض لجوانب أخرى من هذه المجاز تعكس همجية القمع ووحشيته تتمثل فيما يلي:

- التنفيذ الفوري لأحكام الإعدام حيث كانت تنفذ خلال اليوم نفسه الذي صدرت فيها الأحكام أ واليوم الموالي على أقصى تقدير، كما أن المتهمين كانوا يحاكمون بدون دفاع ويمنحون بضع دقائق للدفاع عن أنفسهم.

- حرق جثت الموتى من الجزائريين أو تركها في العراء فريسة للكلاب الضالة والطيور الجوارح[10].

- مصادرة أملاك الجزائريين وخاصة قطعان الماشية وإعادة توزيعها على المعمرين، ويسوق في هذا الإطار شهادة مؤثرة للدكتور بن جلول الذي يقول في هذا الصدد: "شاهدت في قالمة فيلقا مغربيا نهب أحد الدواوير، حيث نزل جنود الفيلق من الجبل وأخذوا الطريق الرابط بين قسنطينة وقالمة حاملين الغنيمة على امتداد سبع كيلومترات تتضمن ما بين 12000 و15000 رأس من الأغنام وما بين 1500 و2000 رأس من الأبقار محملة بالزرابي والجواهر والحلي والأواني النحاسية والصناديق"[11].

- المبالغة في إهانة الجزائريين من قبل الأوربيين ونعتهم بكلمات نابية كبيك و(Bicot) وراتون (Raton) ومختلف عبارات السب والشتم، وتنظيم عمليات استسلام القبائل للقوات الفرنسية في إطار ما كان يعرف بتقليد "طلب الأمان"، وه وتقليد مهين ومذل يعتبر بمثابة استسلام وذلك كما وقع لخمسة قبائل استسلمت، أرغمها العقيد بوديلا (Boudila)، قائد وحدة سطيف على ترديد كلمات مهينة مثل: نحن يهود، نحن كلاب، تحي فرنسا"[12].

كما ازدادت مشاعر الكراهية إزاء الجزائريين ولم يسلم منها حتى قطاع التعليم حيث توترت العلاقات بين المعلمين الجزائريين والمعلمين الأوربيين، إذ في رسالة لمفتش أكاديمية قسنطينة موجهة إلى مدير التعليم في الجزائر العاصمة ورد "بأن وضع التعليم في سطيف يوم 17 ماي يتلخص في وقوع

قطيعة بين الفرنسيين وبين المسلمين الجزائريين، وهذه القطيعة يمكن أن تذهب إلى حد القتل..."[13].

3)-الأهمية التاريخية للكتاب

للكتاب أهمية تاريخية كبرى وذلك لأن الكاتب عالج فيه مجاز 8 ماي 1945 بكل موضوعية وحاول الاجتهاد في تفسير الأحداث والتطورات التي قادت إلى ارتكاب هذه المجاز والوجه البشع الذي اتسمت به ولهذا يمكننا أن نلخص بعض مظاهر هذه الأهمية فيما يلي:

- كون أن الكاتب مؤرخ يتحكم في تقنيات البحث العلمي وهذا ما يعكسه طريقته في تقديم ومعالجة المجازر.
- اعتماد الكاتب على مصادر ذات قيمة، إذ اعتمد على أرشيف وزارة الداخلية ووزارة الحربية فضلا عن أرشيف ماتنيون (Matignon) ومجموعة من الشهود والصحفيين الذين عاصروا الأحداث أ وكانوا طرفا فيها، وهذا ما ساعد الكاتب على إعادة تركيب دقيقة لمختلف مراحل هذه المجازر.
- توخي الكاتب الدقة في كتابة التواريخ ورواية الأحداث.

لقد أعطت الخصائص التي ميزت طريقة تعامل الكاتب مع ركام المعلومات المتعلقة بمجاز 8 ماي 1945 قيمة علمية كبرى لهذا الكتاب الذي من خلاله ساهم في تطور الأبحاث والدراسات حول هذه المجازر وفي إغناء المكتبة الجزائرية بعمل أكاديمي رفيع المستوى يمكن أن يشكل مرجعا هاما للباحثين في تاريخ الجزائر المعاصر وخاصة مجاز 8 ماي 1945.

الهوامش:

-1Jean Louis Planche, Sétif, Histoire d'un massacre annoncé, Chihab éditions, Alger, 2006, P 130.

2- نفسه، ص 131

3- نفسه، ص 132

4- نفسه، ص 129

5- نفسه، ص 137.

6- نفسه، ص 175

7- نفسه، ص 187.

8- حسب الكاتب رفض الإنجليز إعادة تزويد الجيش الفرنسي بهذه القنابل وذلك بعد التقرير الذي نقله القنصل الإنجليزي لوزارة الخارجية والذي يقول فيه بأن عملية من هذا القبيل من شأنها أن تضع الإنجليز في موقف حرج مع العالم العربي، نفسه، ص 164.

9- نفسه، ص 151.

10- نفسه، ص 237.

11- نفسه، ص 237.

12- نفسه، ص 226.

13- نفسه، ص 155.